

عودة الحكمة ابن خلدون

مداخلة القيت في ٧٨/٦/٢٢ ، في المؤتمر الدولي حول ابن خلدون - الجزائر

جورج لايبكا*

في بادئ الأمر أود ان أقول لكم ، انه ليس من أهداف هذا العرض إطلاقاً ، تقديم نفسه باعتباره «اتصالاً» ، بالمعنى الأكاديمي لهذا التعبير. فالواقع ، اني حين استجبت لدعوة مضيفينا الجزائريين اللطيفة ، لم افكر بالقيام بعمل آخر سوى الإصغاء والتعلم من هؤلاء الاختصاصيين المرموقين المجتمعين هنا. ولكن ، بما انه ليس بوسعي التملص ، وعلي أن آخذ دوري في الكلام ، فإني أضع بين ايديكم ، بعض الانطباعات التي أتاحها لي عودتي إلى ابن خلدون. إذ ان المسألة بالنسبة لي هي مسألة عودة. وسأجبر طوعاً لحسابي ما قاله لنا بالأمس «إيف لاكوست» عن علاقته الشخصية بكاتبنا بقدر ما يكشف طريقانا من أوجه التشابه. لقد اكتشفت بدوري ابن خلدون في «سياق» الحرب الاستعمارية ، باعتباره أحد المفكرين الذين نحتاج إلى ادخالهم في صميم ثقافة اعدنا لها تكويننا الفكري على نحو بالغ الرداءة ، ويهدف لا يقتصر على ان نجد طريقنا في تاريخ كاد أن يمسك بخناقنا ، ورفضنا ان نكون له وسطاء سلبيين ومريديين. والحال ان ابن خلدون كما تعرفون ذلك جيداً ، قد وقع في بعض التناقضات الفعلية التي استطاع من ثم ، السيطرة عليها. ولقد شوه ابن خلدون مؤرخون تحولوا إلى «مؤدلجين» وحسب ، بهدف تبرير الهيمنة الاستعمارية واستمراريتها.

لقد كانت لدينا الرغبة في الاتجاه مباشرة إلى النص ، لنحكم بأنفسنا ، فوجدنا معلماً منحنا أسلحة إضافية لا ترتبط داخلها بموقف مناهضة الاعدالة الذي ارتكب بحقه فحسب ، ولا ترتبط أيضاً بالأفكار بل بالحياة نفسها. فابن خلدون يساعدنا على الانخراط في الجانب المحق ، اي في جانب شعبٍ اخترلت عناصره المكوّنة من عرب وبربر ، وبأكثر مما يمكن ، إلى «كاريكاتورات» مخزية .

هذا يجد ذاته درس له دلالاته ومغزاه ، وهو ليس الدرس الوحيد لهذا المعلم . فلقد دفعني حماسي ، غير آبه بعدم معرفتي اللغوية ، فباشرت - والفضل يعود له - بضع سنوات متتابعة بجولة تمحيص في الميدان العربي/الإسلامي .وما

* جورج لايبكا : هو استاذ الفلسفة السياسية في جامعة باريس العاشرة - نانثير.

أن تحقق الاستقلال ، حتى عمدت إلى صياغة مشروع ، يقتضي ان أوصل بدوري هذه المعارف والتعاليم لطلائي في جامعة الجزائر .

وكان من الواجب ، أن تولى الثقافة العربية كلَّ المكانة التي تستحقها ، ضمن برنامج دراسة الفلسفة الذي كنت أسهم فيه يومذاك إن هذه المكانة ليست بالهامشية أو الجانبية - بل إن مكانتها تكمن في هذا الحيز ، حيث تلتقي ، بلا ترتيب ، جميع المحاولات الطامحة إلى صياغة رؤية شمولية ، من «أفلاطون» إلى «ديكارت» ومن «كانت» إلى «كونفوشيوس» ، أو ابن خلدون .

وعلى هذا النحو ، تجرأت ، مستعيناً على امري ، والحق يقال ، بأوثق الضمانات ، التي كانت من بينها مساعدة بعض مشاهير المستعربين ونصائحهم ، فعمدت إلى اختيار مجموعة من النصوص التي أردت ان تصل الى اوسع الفئات .

وهكذا كرست مؤلني الأول الذي أبصر النور في عام (١٩٦٠) لابن خلدون ومقدمته . ولأنني استهدفت المشككين من غلاة الأيديولوجيا فقد اخترت للكتاب عنواناً استفزازياً هو : «عقلانية ابن خلدون» .

ولأسباب عديدة ، لم يكن أفلها تحفظ الناشرين تجاه كتب من هذا النوع ، فقد بقي الكتاب يراوح في مكانه ، بينما أمكنني إعادة طبع رواية ابن طفيل الفلسفية ، وكنت قد قدمتها لشركة (سنيد) الجزائرية ، تحت عنوان «فيلسوف بلا معلم» .

لم أتوقف عند هذا الحد ، ذلك ان تفهم الشركة جعلني أخصص له بعد سنوات مؤلفاً جديداً تحت عنوان : «السياسة والدين عند ابن خلدون» ، حيث فكرت بلا استحياء أن أُلِّم بمجموع الدروس التي ادين بها للمعلم . وأضيف ان الاستشهاد بالمعلم - ضمن مجموعة صغيرة من اصداقاء كانوا يهتمون بهذه المسائل - أصبح كالعادة في الكلام : فكل ما قاله ، صار قولاً مأثوراً ، وكل قول مأثور أرجعناه له بثقة . فلو قيل : «جميع السويديات شقراوات» ، أو «ستم الغلبة على التخلف» ، فإن هذا القول لا بد وأن يُسَبِّقَ أو يُسْتَتَعَّ باللازمة : «كما قال المعلم» .

واليوم ، بعد مرور أكثر من عشر سنوات ، على تحولي عن ابن خلدون ، منصرفاً إلى اهتمامات أخرى ، هل تصدقون ان تعي لم يكن سوى تعب الوهم بأن المسألة اسْتُنْفِدَتْ ؟ تلك هي الاستلابات التي نعرفها جميعاً في الحياة الثقافية .

من أجل هذا ، اغتمت فرصة انعقاد المؤتمر للعوص مجدداً في نتائج المؤلف الكبير . بدءاً مما علمني إياه ، فانهمكت في قراءة جديدة لمؤلفاتي الشخصية . وبما انني أود أن أصرحكم بكل شيء فإن عليّ أن أشدد على كل دهشة اعترتني أمام هذا أو ذلك من الأحكام القاطعة .

حسناً ، من الواجب أن اعترف . - وصدقوني كان ذلك اثباتاً جميلاً - انه على الرغم من وربما ايضا بسبب مسافة الانعتاق عن هذا الالتزام والالتزام تجاه ذاتي . فقد وجدت أن اهم محاور الاهتمام عند ابن خلدون ، لم تزل كما تركتها وكما خبرتها : والزمن لم يخينني . بل أراحني .

عادت اولاً مسألة الافتتان بالانسان . هذه الشخصية الغريبة ، التي ما توصلنا أبداً إلى تحديدها واكتناهاها ، والتي تتحرر من جميع التصنيفات التي نحاول ادخالها فيها ، والتي لا نجد لها ابدأً حيث نتوقعها : في المدينة ، في الريف ، في الأعمال المحيطة ، لدى المحرومين ، بين السادة ، وسط المنبوذين .. وأحياناً تكون شخصية مشرّع كبير ، أو مؤرخ خبيث ، أو فيلسوف .. يكون مخترعاً ، حتى في ممارسته كل تصنيفاتنا المهنية الحديثة ، رافضاً بالتالي كل تقسيم للعمل ولأوقات الفراغ . لا شك اني قربته من المثالية بعض الشيء وأنا أخلط بين سيرته ومصيره الآخر كمفكر «حلت عليه اللعنة» ، غير ان الفكرة التي راودتني هي : أن يُنتج يوماً ما ، فيلم عن هذه الحياة ، عن هذا الرجل ، ومن الأفضل أن يحقّقه مغربي . ترى أية «جدارية» تاريخية نموذجية وأية رواية مغامرات سيكون؟ وقلت لنفسي ، إن وجود سينما جزائرية جريئة وذات مستوى ، سيتيح المجال لتجسيد هذا الحلم الطاغي ، هذا لم يكن متاحاً في الستينات . وها إنني أمامكم أرسل نداء من أجل ولادة فيلم من طراز (الوسترن) عبر مؤتمر علمي ! «وسترن» مرت عليه (٦٠٠) سنة ويخرب لب الطلاب وهو يؤسسهم على العلم الجديد .

والانتاج بمادته المحددة ، عند هذا العالم بالتحديد ، وبعد قيامنا بالعديد من الدراسات والمقارنات والابحاث ، الا يزال متعذراً .. مفهومه للتاريخ و«العموان» .. ألم يدفعا قداماً هو الآخر ، بغناه وخصوصته المنفردة ، ونحن الذين قمنا جاعياً بالعديد من القراءات في مختلف التقاليد .. هل سنصغي اليه بأذن حيادية؟ .. بالتأكيد لا : «موضوع التاريخ الحقيقي ، هو ان يعرفنا على وضع الانسان الاجتماعي ، اي على التمدن ، ويعلمنا الظواهر التي ترتبط بنشوء هذا التمدن . لمعرفة الحياة البدائية ، القابلية الاجتماعية ، روح الكيان ، اشكال السيادة المتعددة التي تلقاها الناس بعضهم عن البعض الآخر والتي أدت إلى نشوء الامبراطوريات والسلطة الوراثية . وترتيبهم من حيث الاهمية . ومعرفة المشاغل التي يخصص لها الناس اعمالهم وجهودهم ، كمهن التكسب ، ووسائل العيش ، والعلوم ، والفنون ، وفي النهاية كل الخصائص الملتصقة بطبيعة التمدن ذاتها» .

وقلت لنفسي ، وأعود فأقول هنا ، هو ذا التأسيس لعلم جديد انه في تقدّمه الذي لم يكن في البدء ، والتأسيس هذا هو حدث في التاريخ ، وما زال يحدثنا عن كل ما هو قائم في هذا الحدث ويدعوننا - ومن اجل هذا نحن مجتمعون هنا - لنفكر : الفكرة ، محمولة بنتائجها الأخيرة ومفادها ان الانسان «حيوان سياسي» ، أو فكرة «التمدن» الملتقطة في مسيرتها من المسكونية (Oikouménè) الى الاجتماع ، إلى الاشكال الاكثر تطوراً في الحياة المدنية وعن مسرح «الاجتماعي» الذي يعرضه امامنا ابن خلدون قد اقول : ان المهّم هو الحركة ، الديناميكية وبوسعنا جيداً - وهذا ما تفعله المقدمة في محاولات مضاعفة - ان نعارض بين البدو وبين الحضّر ، ونستثمر بأحقية مشروعة ، احتكاكاتهم التاريخية ، هذه المقابلة ليست سوى ثانوية ، ليس فقط لأنها تدفعنا إلى اعتبار هذه أو تلك من التجمعات الاجتماعية ، وكأنها كانت أبداً على تناحر ، ونحن نعرف التأثيرات السياسية والأيدولوجية لمثل هذه التقطيعات ، أو لأنها في أحسن الاحوال ستدفع بنا إلى مشادات حول المكانة والفعالية التي سنولها للبدو الرّحل ، للفلاحين ، لسكان الحواضر ، ولن لا أدري أيضاً . بل وايضاً يأتي امتناعنا عن القيام بالمقابلة لأن المقابلة في هذه

المسألة نخون كامل التخطيط الخلدوني المحور حول عملية الانتقال ، لنقل من العمران البدوي إلى العمران الحضري بل وأكثر من ذلك أيضاً ، حول الانتقالات من درجة إلى أخرى في العمران ، من الرمال إلى القصور إلى المنازل الشعبية . والحال . ان انتقالات كهذه ليست بأي حالة خاصة وروحية هذه أو من التجمعات الاجتماعية - كما يقول الفلاسفة - بل ان هذه الانتقالات هي خاصة كل تجمع إنساني ، لأنه ليس بوسع الانسان ان يعيش إلا داخل الجماعة . (فلنسجل افتراضاً لانطلاق الموضوع) . لكن كلامنا لا يعني ان جميع الانتقالات تكون متساوية ومتجانسة عند تجمع كما عند آخر .

ليس لابن خلدون شيء من صفات المنظر المتغاضي عن مسألة التطبيق ، إنه على العكس تماماً يعلق الأهمية القصوى على الخصوصيات : فلنأخذ تشديده على العرب ، لكن دون أن نقع في الخلط ، فالاستثنائية في هذه الحالة المحددة والتي كثيراً ما أخذت على غير محلها ، لا ترتبط بالعرق أو بـ «العنصر» ، بل ترتبط بشروط الوجود ، بما يسميه ابن خلدون كالإدريسي «الاقليم» . أليس الزوج كما يؤكد لنا ابن خلدون ، سوداً بسبب الشمس الأكثر حدة عندهم منها في اي مكان آخر؟ .. فلو جعلناهم يعيشون في مبتدجة (سهل في الجزائر) ، ألن ينتهوا بأن يصبحوا حمراً؟ .. علينا ألا نسخر من هذه الحتمية الجغرافية الضيقة ، من هذه الميكانيكية و«الخشة» . إذ مهما بدا ذلك مناقضاً لما هو سائد ، فانه يبقى الضمانة لمسيرة علمية تمنع الخصوصيات من ان تُعطى كنهايات .

فلنقل ببساطة اكثر ، ان القوة البرهانية للاستثناء على هذا الصعيد ، تتجمع في إرساء القاعدة . وهكذا الأمر بالنسبة للعرب : إنهم رحَّلٌ ، فلنقل ذروة البداوة ، كما سبق وأشرت . ولكن هذه الميزة ، بما تعبر عنه ، توازي الدرجة الأولى من العمران ، وهي الأكثر أساسية بين شروط الوجود التي تسمح بمباشرة مسيرة التمدن . فإن توصل للعرب ، وتفرد ، ان يلحقهم وحيٌ ويحوظهم بطريقة جذرية ، فإن مثاهم سيتألق في كل العيون ، وسيصبح ممكناً وأقصى امتداده ، اعلان «النظام» الذي يدير الكيانات الاجتماعية : «الحضارة هي نقيض البادية ومآلها» .

ضمن المحاولة نفسها ، وكى نبقى في الحالة التي نحن بصدها ، سنتنضم للعرب الشعوب التي عرفت نمط حياة مشابهاً لحياتهم ، مثل البربر ، والأتراك ، والتركان ، والسلاف او الاكراد الآخرين ، حسب الترتيب الخاص بابن خلدون .

حتى الكلمات ذاتها ، وكما تذكرناها في هذه الندوة ، قد سجَّلت ظاهرة عرب وأعراب . وقلت لنفسي : الا يمكن للديناميكي تحديداً ، ان يختلط «بنظام المسبيات» هذا - خلت أني التقطته من قلب

المقدمة - إلا لدى محاكاة غيرو (Guérout) حين يبحث ويحلل ديكارت ؟

لا شك ، ان حركة مفاهيم ، ستكون ملائمة أكثر لاستلهاام الجدل الحقيقي الذي يسود المؤلف . أأكون قد صعَّدت هذه الحركة وارضلت هذا الجدل في مسيرة تقاومه ، مع المخاطرة في تعميق الهوة المنهجية التي تفصل تاريخ البربر عن المقدمة ؟ للآخرين ان يحكموا على ذلك . لكن شيئاً لم يؤدِّ إلى إقناعي في العودة التي قمت بها . بل على العكس من ذلك ، وكما سبق لي ، فقد ادهشني الترتيبات ، فحاولت إعادة تمثيل السلسلة (أهو تداعٍ ديكارتي آخر؟) عبر صورة

شجرة، تكون «البادية» جذورها، و«الثلاثي المتعاقب»، حسب ما أرى: «عصيبة/دولة/ملك»، جذعها، وفي أعلى الجذع تكون «الحضارة» من أصل النبتة، ويكون «المعاش» أغصانها، و«العلم» يكون أوراقها وثمارها. ودوماً تمسكت بـ «مراحي» ، وحتى بالإشباع الجمالي للحركة التي تبدل مكان الخطوط ، مبعثرة أجزاء الصورة ، ومعيدة تركيبها إلى ما لا نهاية.

في النهاية ، عاد تفكيري - لأن بحثي تركّز بشكل خاص حول هذه النقطة - إلى نظرية الكيان السياسي بالمعنى الدقيق ، أو أصل السلطة والمدينة ، هذا الانتقال من العصيبة إلى الملك ، حيث يظهر تاريخ العرب الذي رواه ابن خلدون ، وظيفة الدعوة بكل أهميتها في هذا المجال . تلك الدعاية السياسية التي فكرت أن أجد فيها شكلاً قديماً لمفهومنا عن الأيديولوجية ، والتي أسميتها كي امسك بالحركة : «العمل المحمّدي» ، تلك الانطلاقات التي لا تتوقف والتي إليها يعود الفضل في اعطاء المغرب تجدد المستمر ، تركت عندي الاقتان نفسه .

ومثل افلاطون ، كان ابن خلدون يهجس بالمدينة الإلهية «التبوقراطية» ، او حلم السلطات المجمعّة ، حيث يتبنى داخل الفرد ذاته تضارب الخاص العام ، لكن أفلاطون كرّس حياته برمّتها لمقارنة مدينته النموذجية لما كان يعتبره اسطورة في المدينة الواقعية التجريبية . اما ابن خلدون فبخلاف افلاطون ، لم يكن بحاجة إلى الرجوع إلى العالم الذهني ونماذجه . لقد كان مقتنعاً ان الـ «كاليبوليس» (Kallipolis) . وقد وجدت معها تضاعل زمنها ، وجوداً تاريخياً ، هو وجود المدينة الاسلامية في زمن مؤسسها . لقد كان خارج الاعراض الطوباوية ، فالمعجزة لا تحدث سوى مرة واحدة . فللمدن الواقعية إذن ، علينا ان نولي اهتمامنا ، سواء كنا مؤرخاً ، او رجل سياسة ، أو عالم اجتماع ، او عالم سياسة ، أو فيلسوفاً . وهذا ما كانه ابن خلدون .

وهكذا ، فالواقعية لا تلغي الحنين : - لن نعيد انتاج النموذج ، لكن سنخصعه للتجربة في كل مناسبة - والحال فالظاهرة المحمدية تحكي بامتياز عن الخطوط المتبدلة وعن الحدود المغلوطة . والحقيقة اني لا أستطيع أن أقاوم لذني في إخباركم عن الفرح الذي أحسسته وأنا أجد من جديد ترجمة ذلك . وهي بمفهوم ، الترجمة الأكثر تعبيراً ، والأكثر ازعاجاً ، اي الأكثر وقعاً . وأعني بالترجمة تلك الحكاية عن الرجل الممتطي حماراً ، المدعو «ابوزيد» والذي اعترف بعاطفتي تجاهه .

سأقرأ لكم الآن موجز الحكاية هذه ، والذي استخلصته من خلال كتابات مختلفة لابن خلدون (السياسة والديانة عند ابن خلدون ، من ص ١٤٨ ، الى ص ١٨٠) :

«لقد كان استيلاء المهدي عبيد الله على السلطة ، في القرن العاشر ، شكلاً خلاقاً من اشكال العمل السياسي الديني . معتمداً على قبائل قتامة التي لم تخضع لأحدٍ ، والتي استأهلها عبر مبشرين كبيرين عرف كيف يتخلص منها بلباقة فيما بعد . لقد نجح خلال بضع سنوات في إرساء النفوذ الفاطمي بشكل قوي ، إلى حد جعله يحلم ليلة وفاته ، بأن يترك قاعدة هذا النفوذ المغربية ، تحاول سلب الخلافة من المشرق .

في البدء ، تعتمد الفاطميون ان يظهرها بمظهر الثوريين ، حتى يدمروا على أفضل وجه سلطة «الأغلبية» . لكن ما

أن ارسوا سلطانهم ، وتحت ضغط الحاجة الملحة التي استلزمها مشروعهم للاستيلاء مجدداً على السلطة في مصر ، حتى انقلوا كاهل الشعوب الافريقية تحت عبء بيروقراطية بلا رحمة . فقامت بالتصدي لها - وتبعاً لنهج تطوري ، سيغدو بعد ذلك مألوفاً في التاريخ المغربي - الردة الخوارجية ، التي اوضحت مرة اخرى راية المقموعين . ولم ينتظر أبو يزيد (من عشيرة زينات من بني عفرن طالب) موت المهدي كي يبدأ تحركه ، فاعتنق النكارية (Nakkarisme) ، وهي حركة تمتاز بعدم المهادنة ، وأعلن سريعاً الذين يولون شطر مكة للصلاة ، وأدان ذكرى علي ، وعلم ان التمرد ضد السلطة أمر مشروع .

واتخذ موقع المصلح للعادات ، والمتدين الصفاي . ولأنه كان قادراً دوماً على الافلات من الملاحقات والسجن ، بدأ يكسب تأييداً واسعاً بين القبائل الجبلية في الاوراس . فاقنعهم بالسير معه ضد الفاطميين مؤكداً لهم ان السلطة المخزية ستبدل بشورى المشايخ . لقد اكسبه كل انتصار من انتصاراته ، لا سيما انتصاره في العام (٣٣٢ هـ) على محاولة انفصال عن قتامة ، مؤيدين جدداً وكان معروفاً بأنه يمطي حاراً ويلبس زي الفلاحين الفقراء ، وهذا ما كان يكسبه المزيد من التحالفات . في لاريبوس (Laribus) ، قتل ابو يزيد الحاكم والامام اثناء الصلاة ، وأباح المدن المحتلة لأعمال العنف والنهب ، وأرسل سفراء حتى الى اسبانيا . وكان الفاطميون يهربون من أمام جحافلهم ويولون الأدبار ، فاستولى على « القيروان » : « مجزرة رهيبه ، ملأت بالحث كل إفريقيا ، فانقلبت المدن والحواضر موحشة فارغة ، والتعساء الذين لم ينل السيف منهم ، نال منهم الجوع » .

وعوضاً عن ان تهدمه انتصاراته والرعب الذي نشره ، فقد اكسبته امتيازاً كبيراً لدى الناس ، إلى ان ارتكب هفوته باستبدال حماره بحصان ، وجلايته بثوب من حرير ، فبلغت شدة انتقادات التابعين له حداً قيل فيه : تحلى عن عادات الرفاهية واستعاد مع ثوب الصوف حياته الماضية البسيطة والقاسية . امام المهدي ، اكملت الملحمة . وبعد مطاردة طويلة في الجبال التي استعادها ، عرف ابو يزيد نهاية بمستوى انتصاره وبمستوى الملح الذي تركه في قلوب الفاطميين ، فقد انتظر المنصور الذي تغلب على ابي يزيد حتى مات الاخير متأثراً بجراحه (آب-اغسطس ٩٤٧ م) ليجلله بالقش ويدور به في المدينة » .

لن احاول حتى ان احفظ كل كلمات هذا النص . كان بوسعي ان افعل ، لولا ان ذلك سيأخذنا بعيداً جداً فسنترك للنص افكاره وحواشيه .

وهذا سيتيح لي ، ان اعرض لجانب أخير من هذه العودة ، من هذا الاحياء لابن خلدون . ترى اي نفع نجنيه اليوم من المعلم القديم ؟

يبدو لي ان تجنب هذا السؤال غير ممكن ، وأنا لا اخشى الانعطافية ، لكنني اشك في امكانية القيام بواجب ، هو واجب تحمل بضع نصائح للخلدونيين الجدد ، الذين احس بأنهم كثيرون في الجزائر ، والذين أحذركم انهم هم ايضاً في سياقهم التاريخي يتظنون من ابن خلدون ، ان يغدو بعض الشيء معاصراً لهم . وأضيف ان المسيرة العلمية الصرفة ،

لن تكون غريبة عن اهتمام كهذا ، فعليها ان تأخذ في حسابها ، كما لو كان فعلاً مأثوراً ، فعل معاصرة برسم التكرار .
ماذا نفعل اذن بابن خلدون؟

سنبدأ بالسليبي أولاً ، وهو ايضاً نقد ذاتي :

اعتقد ، عبر رؤيتي لابن خلدون في عام (١٩٧٨) ، اني ساتردد امام بعض اشاراتي أو تأكيدات التميز كثيراً بتبعيتها للفرضيات الثقافية للمرحلة . ومنها : التنافسات المتداخلة في حرب التحرير ، واللاحقة للاستقلال ، والتي ارجعتها لخلاف العصبية ؛ وبعض اعتباراتي حول التناحر ما بين المدينة والريف ، حيث افسحت في المجال لرواج سوق الموازين الاجتماعية الحديثة . او المسألة الفلاحية التي اخذتها اقلياً وبشكل مغلوط ، وضمن رؤية اجالية للعالم الثالث .

وعلى الرغم من كل الاحتياطات المتخذة ، سأكون ايضاً اقل فتوية ، لكن ، وبالنسبة لمدي صلاح وديمومة تخطيط التطور الخلدوني (ديمومة الصلاح هذه ، التي بوسعها ان تكون تاريخية بشكل ما) ، فإني سأشكك اكثر فأكثر بالانهار بما هو كوني ، وبمبالغ التصميم التي يبذل الفلاسفة (بمن فيهم الاكثر نقدياً) طاقتهم لمقاومتها .

بالمقابل ، حين افكر بمداولات مرّت عليها عشرة اعوام او خمسة عشر عاماً ، لاسيا مع الطلاب ، فإنه يتراءى لي انني لن اتمنق بنفس التشديد النظري حيال الفرضيات الواثقة ، والتي تجعل من ابن خلدون ، خليفة هذا أو ذاك الفكر المرموق من الذين يقعون بيننا وبينه ، واللائحة بهذا الصدد طويلة ؛ أو تلك الفرضيات التي ترى في المقدمة الأساس المسبق ، إن لم يكن المخطط الخاص ببعض نصوص الأدب المهمة ، واللاحقة لهذه المقدمة بشكل شبه كلي ، حتى اثناء ابداعها . (كما خيل الي اني استطعت ان افعل) ! هذا دون ان نتكلم عن الارتياح الكلي ، لعدم نسبية او لترع التسمية عن حقول الدراسة الخلدونية : «الجغرافية السياسية» ، او «علم تاريخ تطور الانسان الثقافي» ، هل كان هذا بتأثير الزمن؟

على الأقل ، ان لم تسقط بعض نقاشاتنا يحكم مرور الزمن ، والمسألة نسبية تماماً – فهل كان يمكن ان تكسب هكذا معارك خضناها ، ضد خلط ايدولوجي على هذا الغرار؟

ان ابن خلدون ، بالنسبة لهؤلاء اللاحقين له ، والذين هم من مواطنيه (كيف نقلت من اصطلاحاتنا المعاصرة) ، ليس مجرد مدخلٍ لتاريخهم الذي حدث انه وحده امتلك تحليله . لكنه ايضاً استدلالهم المنهجي ، اعني انه عمل المفاهيم على مادة نصية ، وبغض النظر عن الإسم الذي نعطيه لهذه المادة : تاريخ ، او اجتماع ، او علوم ، فإن نموذجيته قلّ ان تعرف شبيهاً ، انه استدلال متفوق حتى على العديد من هؤلاء الذي تنفق حولهم غالباً من حكماء مزورين ، ومؤرخين للمعرفة السيئة الاختباء خلف علومهم الجديدة . سأذهب إلى ابعد من ذلك : فليجد كل واحدٍ منفعته عند هذا المعلم ، ولو كان ذلك على حساب الانحرافات البسيطة ، لأن اغلب هذه التحولات سيكون إجائياً . إنه على عكس الفندق الإسباني ، إذ اننا نجد دوماً على هذه الطاولة ، بعض الطعام غير المنتظر ولكن بشرط واحد

يتلخص في قراءة متينة ، مباشرة ، وسترتكنا هذه القراءة ، نلتقي بـ «فوكو» أو «هيجل» قبل الأوان ، «بماركس» قبل «ماركس» .

وسواء التقينا عبر قلب الاشياء أم عبر الاستكمال الخارجي ، فلنصغِ لِمَوْلَفٍ في انتقال الادوات الجديدة في ظل القديمة ، ولنبدل الكلمات ذاتها : نمط انتاج ، ايدولوجية ، بنى فوية ، طبقات او دول في «نظام المسببات» الخلدوني ، ولنحترس من ان نرى ، الأفضلية ، وعبر هذه المحاولات ، جهلاً او خطيئة . فلنقتنع اننا ساهمنا في الانتهاك من اللجوء إلى الاستبدالات الخيثة ، من نوع : ابن خلدون بديلاً لديكارت او بديلاً لماركس . ومن اللجوء ايضاً إلى التصنيفات غير الشرعية للمجتمع المغربي ، او للعرب او للإسلام . ولنترك مطلق الصلاحية للاستلهاام الثقافي ، ولاثباتات المفهوم . إن الممارسة ، هي المحك دائماً .

وبالنسبة للافتنانات نفسها ، وللمتخيل الانتروبولوجي/الفرسني : لم لا..؟ لقد قرأت من بضعة اشهر ، في النسخة المترجمة إلى الفرنسية ، من كتاب (Thesiger) «صحراء في الصحاري» ، الذي يتحدث فيه عن آخر الرُّحَل في العربية السعودية ، رُحَل الربع الخالي ، الذين عاش معهم ، فيستعمل الكلمات نفسها التي استعملها ابن خلدون ، والتي لا يبدو انه يعرفها (او في كل الاحوال هو لا يحدد مصدرها) . كما يحكي ايضاً عن الناس ذاتهم .. معاصرنا . وفي نهاية انطباعات العودة هذه والتي لم تكن - صدقوني - عودة محارب قديم ، استخلص رجاء : ان لا يُجعل ابن خلدون موضوعاً أكاديمياً ، ولا مزاراً مقدساً... بل ليكن في خدمة متنافسين جدد لكي يمتلكوا ماضيهم وينفذوا بعض مفاهيم ذات ابداع علمي ، اي مفاهيم خصبة بمعنى انها مؤهلة لأن تجعل تناقضات زمنهم الخاص قابلة للتجريد الذهني ، وتضمن لهم السيطرة الواضحة عليها .

ترجمة كاتيا سرور

المراجع

المنشورات الاساسية .

- ابن خلدون - المقدمة : (عقلانية ابن خلدون) .
- عرض ونصوص مختارة - دار النشر «هاشيت» - باريس ١٩٦٥ .
- السياسة والديانة عند ابن خلدون ، رسالة في الايدولوجية الاسلامية - دار نشر S.N.E.D. الجزائر . ١٩٦٨ .
- ابن طفيل . فيلسوف بلا معلم ، (قصة حي بن يقظان) ،
- اعادة طبع مع تقديم وملاحظات - الترجمة الفرنسية . ل. غوييه .
- دار نشر S.N.E.D. - الجزائر . ١٩٦٩ .
- الماركسية المعاصرة .
- دار نشر : المنشورات الجامعة الفرنسية (PUF) - باريس . ١٩٧٠ .

- حول المفهوم الماركسي للفلسفة.
 - دار نشر: المنشورات الجامعية الفرنسية (PUF) باريس، ١٩٧٦
 - لينين: النفتق الأزرق.
 - دار نشر: المنشورات الجامعية الفرنسية (PUF)، ١٩٧٧.
 - وكذلك:
 - الامبريالية، (مؤتمر الجزائر) دار نشر S.M.E.D. - الجزائر، ١٩٧٠.
 - لينين والتطبيق العلمي C.E.R.M.
 - دار نشر: المنشورات الاشتراكية - ١٩٧٤ - ١٩٧٤، باريس.
 - الفلسفة والديانة C.E.R.M.
 - دار نشر: المنشورات الاشتراكية - ١٩٧٤ - باريس.
 - حول الديالكتيك: C.E.R.M.
 - دار نشر: المنشورات الاشتراكية - باريس، ١٩٧٧.
 - الحوار الطوباوي (مؤتمر سوريي) U.G.E., 10 18 - ١٩٧٨.
 - الواقع النسائي: C.E.R.M.
 - دار نشر: المنشورات الاشتراكية. باريس، ١٩٧٩.
- مع مساهمة، مركز الدراسات والابحاث الماركسية، بالاضافة إلى مجلات عديدة: الفكر، جدليات، المجاهد، المجلة الجزائرية للعلوم القانونية والسياسية والاقتصادية. مجلة تاريخ وحضارة المغرب، النقد الماركسي، العالم الثالث، المجلة الفلسفية، وثائق الفلسفة، الطريق الخ..

الهوامش

- (١) Epistemologie: مبحث نقدي في مبادئ العلوم، وفي اصولها المنطقية على المستويين: الداخلي والخارجي.
- (٢) الاستارة المغلقة اي المتضمنة لاسئلة تكون احتمالات الاجابة عنها محددة بشكل مسبق.
- (٣) راجع الصفحات من ٦٢ الى ٦٥: فصل «نقد الموقف التجريبي المغالي» في الكتاب نفسه، وكذلك من ص ٣٣٢ حتى ٣٣٥، حول الثنائيات المعرفية لباشلار، في المرجع نفسه.
- وكذلك يراجع فهرست التعابير بالنسبة للكلمات التالية: التجريبية، الايجابية، الشكلية، المثالية، الفلسفة، الخ...
- (٤) في كتابه «المخيلة السوسولوجية» الفصل الثالث.
- (٥) راجع كتاب «مهنة عالم الاجتماع» من ص ١٣٧ حتى ١٤٠.
- (٦) المرجع نفسه ص ١٤١ - ١٤٢.
- (٧) الباحث المغالي في انطلاقه واعتماده على النظرية.
- (٨) انظر كتاب Imagination Sociologique, R. Mills, chp.3 p.129.
- (٩) المقارنة مع الالسنية مفيدة جداً في علم الاجتماع، لفهم ظواهر اخرى.
- (١٠) وهذا لا يعني ان هذه المعرفة هي «جيدة» قسراً. المعرفة ليست جيدة أو خاطئة بخذ ذاتها بل ان تطبيقاتها في الواقع تكون جيدة أو خاطئة. فبمقدار ما تستعمل الحقيقة للتغلب على الجهل والتعاسة تكون جيدة. وبمقدار ما تستعملها الدول لتكبير قدراتها على التدمير والموت آلاف المرات (الذرة، الأسلحة البكتريولوجية، والكيميائية) وعلى الإقناع (استعمال علم النفس، والتحليل النفسي، والعلوم الانسانية لتذليل الشعوب على العموم). تكون عاطلة بالنسبة للإنسانية. ويكفي ان تقارن أرقام ميزانيات «القوى العظمى» المخصصة للأبحاث الفضائية مع تلك المخصصة للبحث الطبي والغذائي لفهم الدور الذي تدفع الدول العلم للقيام به: إنه بصورة أساسية دور التدمير.

- (١١) الاحاطة : مذهب حيوية المادة (اي الاعتقاد بان النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في وقت واحد).
- (١٢) Essentialisme نظرية فلسفية تقر ان الجوهر يسبق الوجود بعكس الوجودية (المترجم).
- (١٣) المصاب بمعنى الألوان ، والعاجز عن التمييز بين اللونين الأحمر والاخضر (المترجم)
- (١٤) حول هذه النقطة نورد مقارنة كلاسيكية : اللغة بالنسبة للتفكير كالهواء بالنسبة لطيران العصفور ، أي أنها ذات ضرورة مطلقة بالنسبة للتفكير ، فهي توجهه نحو سبل محددة تتلاءم مع طبيعة بنيتها الذاتية ، وينتهي بها الأمر الى اعاقه التفكير عن التفتح الكامل ، كما الهواء يحول العصفور ويشكل له الكايح في الوقت نفسه .
- (١٥) الكاتب يقتبس هذه الرؤية عن جاك مونو ، حيث اوردها في كتابه «الصدقة والضرورة» باريس ، ١٩٧٠ .
- (١٦) اللاموس جنس حيوانات من فصيلة القاريات .
- (١٧) ان نظرية غاستون بوتول (اختصاصي بقضايا الحروب) للفسرة للحروب هي نظرية مشكوك بها كثيراً . فهو يعتقد ان الحروب ضرورية لاقامة التوازن بين الثروات الطبيعية والسكان . وهي تلتقي مع نظرية مالتوس التي قد هاجمها ماركس (أنظر بهذا الخصوص كتاب الفريد سوفي : «مالتوس والماركسيون . والفكرة المركزية التي تقوم عليها هي «أن ولادة طفل اضافي تعني معدة جائعة جديدة» . ولكن تعني يدين اضافيتين ايضاً . فاذا لم يتوفر له العمل ، فليس ذلك بسبب «حاجة» أبدية ، ولكن يعود ذلك الى البنية الاجتماعية التي لا تتصف بالخلود ولا بالحمية .